

## العطاء والرمز وعظمة الإنسان (\*)

د. عبدالستار إبراهيم

استشاري الصحة النفسية والعلاج النفسي  
بالجامعة الأمريكية بالقاهرة.

### مقدمة

دعوني بادئ ذي بدء أتقدم لكم بالشكر على هذه الدعوة الرقيقة، وعلى منحي شرف هذا اللقاء، وعلى ما بذله بشكل خاص الصديقان الكريمان الأستاذ الدكتور حسين عبد القادر والأستاذ الدكتور عبد الله عسكر لكل ما بذلاه من جهد لجعل هذا اللقاء ممكنا بهذه الصورة المشرفة. إنه لشرف عظيم بحق أن أحظى منكم بهذه الثقة خاصة وأنها في ذكرى أستاذنا الجليل مصطفى زيور. وسعادتني في واقع الأمر تنطلق من مصدرين، أولهما أنكم منحتوني فرصة التعبير عن مشاعري والاحتفال بذكرى أستاذنا الراحل الجليل، أما المصدر الآخر لسعادتني أن هذا الاحتفال يمثل لي - بعد رحيل من الوطن لأكثر من ثلاثة عقود - احتفالا آخر بلقائي بكم: أصدقاء وزملاء وأساتذة ممن أكن لهم مودة وحباً في القلب من القلب.

(\*) محاضرة أقيمت في الجمعية المصرية للتحليل النفسي، في ذكرى رحيل الأستاذ الدكتور مصطفى زيور، في ٣١ مارس ٢٠٠٦.

## عقل وأربعة وجوه

أريد هنا أن أعبر أمامكم عن بعض ما تسعفنى به الذاكرة من ذكريات انمحي الكثير منها، ولكن آثارها بقيت لتذكرنى بالدين الذى أدين به لهذا الرجل، و للقسم الذى أنشأ وطوره وحافظ عليه تلامذته من بعده ليصبح قلعة شامخة فى زمن ضلت فيه نفوس كثيرة فى سعيها عن بعض المعانى الجليلة فى الحياة.

لكن دعونى قبل الدخول فى ذلك أن أذكر أن عظمة الإنسان- من وجهة نظرى على الأقل- يجب أن تقاس و تعرف من خلال مسارات ثلاثة:

١- المسار الأول آثاره التفاعلية المباشرة على من يتعاملون معه على نحو مباشر سواء كانوا زملاء مهنة، أو طلاب أو أفراد أسرة. فليس هناك أفضل من الاحتكاك المباشر إثارة لما يود الشخص أن يتركه من مثل عليا، أو قيم أو تصرفات بين المحيطين به. فمن خلال ما يمارسه أمامهم من متطلبات دوره الاجتماعى وما يرسمه أمامهم من قدوة فيما يجب أو لا يجب فعله فى المواقف الحرجة، يتمكن الناس من الملاحظة المباشرة لمصادقية العظيم بدون زيف أو ادعاء.

٢- والمسار الثانى آثاره الرمزية أى ما تبقى منه للآخرين من تراث علمى أو بشرى كما يتمثل فى تلامذته الذين ورثوا عنه الريادة وحافظوا على تراثه ومبادئه على نحو يفتح أمام الناس آفاقا ممتدة من الفكر والقيم. والآثار الرمزية تشمل أيضا أساليبه فى معالجة أفكاره

ولعل أول ما أود أن أصارحكم به بأننى تحيرت فى اختيارى لعنوان منا سب لكلمتى معكم هذا المساء: أسميتها فى البداية- مع الاعتذار للكاتب والأديب القدير الراحل "إبراهيم عبد القادر المازنى": "عود على بدء"، لكننى أدركت ما فى هذا العنوان من خطأ منطقى، فالعقل لا يعود مطلقا للبدية، لم أعد للبدية وكيف للفكر أن يعود لما بدأ، وهاهم فلاسفة الفكر قد علمونا منذ العصور اليونانية السحيقة أن الإنسان لا ينزل البحر مرتين، وها هو المفكر الأمريكى "أو ليفر هولز"، يقول مؤيدا ذلك: إذا أتيحت للعقل فرصة الاطلاع على فكر جديد، يصبح من المستحيل عليه أن يعود بعدها إلى ما كان عليه فى السابق". ثم فكرت فى عنوان آخر: "عودة المهاجر"، ولكن بعدى فى حقيقة الأمر عن مصر وعن هذا المكان لم يكن هجرة بالمعنى السائد بيننا: انقطاع عن الجذور، تخليا عما يجب أن أتحدى به من إخلاص ووفاء. بعدى لم يكن إلا عن إخلاص لنفس ما تعلمناه من الراحل الجليل: "البحث عن المعرفة والامتداد بها متى وجدناها، وأينما وجدناها ومع من نجدها".

وأخيرا استقر رأى على هذا العنوان الذى بين يديكم الآن: العطاء والرمز وعظمة الرجال، فهذا هو منطلقى فى التعبير عن مشاعرى الحقيقية لما اكتسبناه من "زيور" من عطاء فعلى وعطاء رمزى بكل ما تركه لنا من قيم جليلة وتراث شخصى وعلمى يعترف له به طلابه ومرضاؤه والمنتمون لنظرية التحليل النفسى والمنتمون لغيرها من النظريات حتى وإن تعارضت معها.

وتوجهاته الثقافية والمعرفية، أى ما يمكن أن أطلق عليه مع بعض التجاوز إيديولوجياته الفكرية والمعرفية، أى بناءه المعرفى ومعتقداته واتجاهاته العلمية، وما أمدته به هذه الأبنية الإيديولوجية من طاقة على العمل الهادف وحركة وأساليب التفكير والكتابة والبحث العلمى.. إلخ. ومن مزايا الآثار الرمزية أنها تصبح متاحة لمن لم تتح لهم الظروف فرص مباشرة من التفاعل والاحتكاك المباشر بالعظيم سواء من جيله أو من الأجيال اللاحقة به.

٣- هذا عن المسارين الأول والثانى، وهناك ثالثا ذلك المسار الذى يتعلق بما أسميه عامل الشخصية الذى نلجأ إليه عندما نود معالجة المسارين السابقين وفق ما بينهما من صلات وتفاعلات وتناقضات ظاهرة أو غير ظاهرة بينهما. إننا نظل قبل ذلك وبعد ذلك عاجزين عن توظيف العظمة عمليا وفعليا للصالح العام دون وجود شخصية متحركة ونشطة ومؤثرة.

٤- وأضُم لعامل الشخصية أيضا عامل الاعتراف الخارجى أى مدى ما يبيده الآخرون من تلامذته أو غيرهم من اعتراف بأهمية التراث الذى بقى لنا من عظماء البشر، فبدون هذا الاعتراف ستظل أعمال هؤلاء العظماء محدودة فى تأثيرها حبيسة فى عقول أصحابها. وأستطيع أن أقول هنا أن الراحل الجليل اتسم بخصائص وسمات وقدرات وجدانية ومعرفية، مكنته لا من فرض إرادته على من حوله بدون

تسلط أو جمود، بل وأن يكتسب الحب والتقدير، مما مكنه من الاعتراف الخارجى الذى ساهم بدوره فى توظيف أعماله والإبقاء على خلوده.

هذه هى المسارات الأربعة التى أراها ضرورية عند تقييم التراث الذى يتركه لنا عظماء البشر، فإن نظرنا للدكتور "زيور" نظرة تقويمية وفق هذه المسارات لن نبالغ إن قلنا بأنه أوجد لنفسه مكانة متميزة فى كل منها:

- فقد تميز كأستاذ..

- وتميز كرجل إدارة لجهاز علمى..

- وتميز كشخصية مؤثرة فى الواقع العلمى والتوظيف الاجتماعى لرسالته التى بشر بها.

- وتميز فيما حقق من اعتراف خارجى كرائد وأستاذ، و معالج نفسى وكاتب يحسن التعبير عن أعمق الأفكار وأصعبها.

لقد كان عقلا بأربعة عيون أو أربعة وجوه. أقول ذلك وأضع هذا فى ميزان عبقرية الرجل وعظمته لأن من مقاييس الشخص العظيم أن يمتد بأفأقه الذهنية لا لتطوير ما يؤمن به فحسب، بل وأن يوفر المناخ الملائم للنمو والانتعاش لمن حوله وللأجيال اللاحقة به، فضلا عما يتسم به من قدرة على وضع الفكر موضع التوظيف العلمى. من هذا المنطلق ومن هذه المسارات مجتمعة معا سيكون من السهل على أن أضع أمامكم بضعة من ملاحظاتي على النحو التالى:

#### ١- الأستاذ - المعلم والشراسة الفكرية :

إننى محظوظ من حيث أنه أتيت لي فرصة الاحتكاك المباشر بزيور، ومن أتيت له هذه الفرصة يعرف أن الرجل ميز نفسه فيها كأستاذ ومعلم من الطراز الأول. ولهذا كان تأثيرنا به مبكرا. أصبحنا بعد فترة قصيرة من دخول القسم بشقاوة الأطفال وبراءتهم ولهوهم عندما يجدون بين أيديهم شيئا جديدا مشوقا، فكنا إذا عرفنا اسما جديدا أو مصطلحا غريبا علينا من مصطلحات التحليل النفسى كنا نلهو به ونكرره بمناسبة ومن غير مناسبة للمرح أحيانا وللترفيه الانفعالى أحيانا أخرى، وتعبيرا عن رغبتنا فى تحقيق الحرية والانطلاق الذى حملته لنا النظرية التحليلية فى تلك الفترة فى أحيان ثالثة.

ولكن تأثيرنا بالأستاذ كان يتطور دوما، كنا مأخوذين به و كنا فى صعود دائم من أسفل إلى أعلى بفضل هذا الرجل الذى انشغلنا به، ولكنه فضل أن يدفعنا أكثر للانشغال بذواتنا، فكانت فترة احتكاكنا الأولى به - على الأقل بالنسبة لى شخصا- فترة بحث عن الذات. ساعدنا نمونا الفكرى و نضوجنا التجريدى إذا ما استخدمنا مصطلحات بياجيه أن ننشغل بالدكتور زيور، وننشغل أكثر بذواتنا. لهذا قد لا أكون مبالغا إن اعتبرت تلك الفترة الجامعية الأولى فترة حمو وانطلاق فى البحث عن الذات وتحقيق الحلم المعرفى الذى أشعله فىنا قسم علم النفس برئاسة "زيور"، وبكل المقاييس و كل مراحل التطور التى مررت بها كانت هذه الفترة أيضا أكثر فترة من حيث الخصوبة المعرفية فى حياتى المهنية التى

امتدت حتى الآن لأكثر من أربعين عاما. فى تلك الفترة الأولى قرأت فيها أكثر ما قرأته فى أى فترة لاحقة بما فى ذلك التحليل النفسى بكل مذاهبه، وفى الفلسفة وعلم النفس، والأنثروبولوجى، ووظائف الأعضاء، غير اهتماماتى الجانبية ببعض أنواع الأدب والفلسفة الوجودية والمادية الجدلية. لقد اكتسبت من تلك الفترة حبى لعلم النفس، وحباً أكثر لما أتاحة لنا ذلك العلم من نوافذ معرفية وعملية متنوعة تتعارض أحيانا وتلتقى أحيانا أخرى ولكنها فى تعارضها أو تلاقيها تفتح المزيد من الفهم وضبط السلوك الإنسانى فى صحته ومرضه، فى سعادته أو شقائه.

ومع البراءة و الرغبة فى التفتح الذهنى تفتحننا زملاء هذه الفرقة وكان عددنا آنذاك لا يزيد على أصابع اليد فى سنتينا الثالثة والرابعة من قسم علم النفس: حسين عبد القادر، محسن يوسف، نادية زكى، ومجدى مجاهد، محمد دياب وغيرهم ممن لا تسعفى الذاكرة بأسمائهم، تفتحننا على نظرية التحليل النفسى الذى كان يقوم بتدريسها لنا مصطفى زيور.

كانت علاقتنا بالدكتور زيور مرسومة بشكل لم نخطط له وأعتقد أنه أيضا لم يخطط له، أى قريبة و بعيدة: قريبة بما سمح لنا أن نتعرف- من خلال محاضراته - على النظرية التحليلية بكل تفاصيلها وأسرارها من رائدها الأول فى مصر. وكانت بعيدة بحكم ما يطبع العلاقات بين الأساتذة الكبار والطلاب فى مراحل التكوين الأولى، إن هذا القرب والبعد الآنى جعل تأثيره الذهنى فى من يحتك به يأخذ شيئا من القدسية والتقدير. لقد

حمانا بقربه منا بما غرسه فينا من معرفة وتوجهات ذهنية، و حمانا حتى فى بعده عنا بما أضفاه على المعرفة من قدسية ومهابة فى نفس الوقت.

نعم كان هذا القرب والبعد معا عندما أنظر له الآن حماية من الضياع. وبهذا القرب والبعد المتأنى فرض علينا بأستاذيته أن نحقق معه شراكة فكرية - إيديولوجية، حتى وإن اختلفت مساراتنا وما تبناه بعضنا - بما فيهم كاتب هذا المقال- من توجهات إكلينيكية ذات طعم سلوكى معرفى-عملى مختلف عما كان يبشر به الأستاذ الجليل.

أقول هذا وأنا أعرف أن حياتى وممارساتى فى علم النفس، وما تعرضت له من تجارب مختلفة على المستوى القومى والعالمى جعلتلى اختط طريقا تكامليا مختلفا نسبيا عن الاتجاه التحليلى.

ومع ذلك فإن اختلافى يحسب له فى ميزان ما تعلمناه من الرجل بأن نخلص لا للرأى ولا للمذهب ولكن الإخلاص الحقيقى يكون للمبادئ وقيم التعدد والتنوع. تعلمنا هذا لحسن حظنا فى فترة مبكرة من تكويننا المهنى، وبقي هذا فى تكوينى الأساسى وربما بقى أيضا فى تكوين من احتكوا به فى فترات انتمائهم لقسم علم النفس بجامعة عين شمس.

الإخلاص للمبادئ العلمية لا الإخلاص المذهبى، هكذا تعلمنا من هذا المناخ العلمى الذى وفره لنا الراحل الجليل بقسم علم النفس أن نتفتح على كل المسارات المتقدمة فى هذا العلم. هذا أيضا جزء من عظمة الرجل فحتى ما بين الزملاء

والأساتذة الذين نهجوا نهجه و سلكوا طريق التحليل النفسى لم تتبنى عظمتهم على تماثلهم وتطابق أفكارهم مع الأستاذ بل على ما اختاروه لأنفسهم من توجهات نظرية وإيديولوجية جعلت من انتماءاتهم التحليلية لمعطف التحليل النفسى متعددة وثيرة ومختلفة فى نفس الآن.

لم ينبنى ديننا للرجل على تماثل و تطابق مذهبى بما آمن به و دعا إليه وبشر به. واعتقد أن الرجل أراد ذلك، أراد لنا بحكم المناخ الذى ساهم فى تطويره خلال مسيرته الإدارية لقسم علم النفس، أراد لنا أن نمتمد فكريا ونتطور ونختلف. لقد أراد لنا أن نختلف فى الرأى وفى التوجه ولكن كان فيما أعتقد يؤمن بأن كل اختلاف فى الرأى لا يعنى اختلافا فى المبدأ.

ذلك هو الوجه الأول أو العين الأولى للفكر الزبورى: عين الأستاذية التى تدعوك لطلب المعرفة والحكمة متى تجدهما، وأينما تجدهما، ومع من تجدهما. أو على الأقل إيمان أشبه بإيمان الشاعر الإنجليزي جان كيتس "بأن تدع الخيال المجنح ينطلق بعيدا فى سماء فكر أرحب، وافتح باب سجن العقل على مصراعيه"

٢- إيمان مطلق بالتعددية:

ذكرياتنا عن تلك الفترة ليست وافرة ولكنها الآثار الرمزية هى التى أبقت شراكتنا معه. لقد التحقت بقسم الدراسات النفسية والاجتماعية سنة ١٩٥٩ عن وعى، ويعد أن اطلعت بطريق الصدفة وقبل حصولى على الثانوية العامة على كتاب بعنوان "أسس الصحة النفسية" للدكتور عبدالعزيز القوصى الذى كان واضح التأثير بنظرية

التحليل النفسى. وقد احتوى ذلك الكتاب على ما أتذكر أجزاء وافرة عن نظرية التحليل النفسى أشعلت اهتماماتى بالتحليل النفسى. وبالرغم من أننى لا أتذكر حتى الآن كيف وقع هذا الكتاب فى يدى و أنا فى قرية صعيدية نائية من مركز الأقصر. ربما جاءنى من أحد أخوتى ممن كانوا أكبر سنًا وطلابًا بالجامعة، بالرغم من هذا ترك هذا الكتاب أثرًا غريبًا فى نفسى، كانت موضوعاته كلها مثيرة للفضول الذهنى والإثارة الوجدانية لشاب فى سن المراهقة تعذبه - بحكم سنه ومعايشته لفترة المراهقة - الآلام النفسية المرتبطة بالقمع الاجتماعى والانطواء. بعد حصولى على الثانوية العامة وحصولى على مجموع مرتفع جعلنى الثانى على جميع مدارس الأقصر. قررت - بالرغم من الضغوط الأسرية لأن التحق بكلية التجارة جامعة القاهرة - أن التحق بأى قسم لعلم النفس، ومن ثم كتبت لأخى الأكبر يوسف أبو الحجاج و كان أستاذًا للجغرافيا بجامعة عين شمس ورجوته أن يلحقنى بأى قسم من أقسام علم النفس فى مصر. ولحظى أبلغنى بوجود شعبة وليدة بكلية الآداب جامعة عين شمس، بقسم الدراسات النفسية والاجتماعية. وقد خاب أملى للأسف عندما علمت أن القسم قد أغلق على الطلاب الجدد ومن ثم التحقت بقسم اللغة الانجليزية بكلية الآداب بنفس الجامعة، وبعد أقل من شهر من التحاقى بقسم اللغة الانجليزية أعلن قسم الدراسات النفسية والاجتماعية عن رغبته فى قبول مجموعة جديدة من الطلاب سيتم اختيارهم من خلال أساليب القياس النفسى.

وقبلت بقسم الدراسات النفسية والاجتماعية، وتركت قسم اللغة الإنجليزية. لقد ذهبت لأعرف ما كنت أرغب فى معرفته ربما انطلاقًا من صراعاتى الشخصية ورغبة فى التعرف على النفس، والخلاص مما يصيب الشباب فى تلك الفترة من قلق وصراعات ويحث عن تحقيق الحلم إذا ما استخدمنا مفاهيم "إريكسون"، فوجدت فى شعبة علم النفس ما أريده ووجدت فوق أى اعتبار آخر مجموعة من الأساتذة الذين تظل ذكراهم حية وعلى رأس كل هؤلاء رئيس عائد من فرنسا حيث عمل فيها مديرا للعيادة النفسية بإحدى أشهر جامعاتها: كان هذا هو مصطفى زيور.

لقد حاولت أن أعرف ما هى النفس وما هو العقل ولماذا نمرض نفسيًا؟ وكان أن فتحت لى مغاليق ومفاتيح لم أكن على علم بها من قبل، وشعبة نشطة يقودها محلل نفسى مرموق ومن أول الأسماء فى هذا التخصص وأعظمها. كان هذا هو زيور الإدارى الذى ترأس قسم علم النفس طوال فترة بقائى به طالبًا بالجامعة، وشاهدته فى كلية الآداب جامعة عين شمس: رجلًا مشغولًا دائمًا لا تراه إلا لمامًا، متوسط البنية أميل للقصر منه للطول، وإذا رأيته تجده ينتقل بسرعة مذهلة من مكان إلى آخر وصوت حذائه يدق الأرض دقا بثقة واعتزاز، وكأنه فى مارش عسكري (سمعت فيما بعد من ابنته الدكتورة نيفين أنه جاء من أصول جزائرية). كان الرجل مهيبًا لم تقرب منه إلا بمقدار، مشغول دائمًا عن الحياة والمناصب الإدارية، مهنته أن يبحث عما هو مدفون فى أعماق البشر ويناقشه، ومع ذلك فنحن لم نره

يتحدث كثيرا إلا في مناقشات الماجستير والدكتوراه، والتي كنا نتزاحم لحضورها لمشاهدة هذا الرجل. وكان من نصيبى آنذاك أن حضرت مناقشات عدة له من بينها مناقشة عبدالسلام القفاش الذى كان معيدا أو مدرسا مساعدا آنذاك بقسم الفلسفة وقبل أن يلتحق بقسم علم النفس. هذا المناخ ساهم فى إشغال اهتمامنا بهذه النظرية، وتمخضت عنه إثر تخرجى كتابة بعض المقالات المبكرة فى مجلة "المجلة" ومجلة الفكر المعاصر عن بعض الشخصيات التحليلية مثل "يونج" و"فرانز الكسندر".

وكان هناك زيور ثالث هو الذى قابلته صدفة بمعرض الكتاب بالقاهرة، وكنت عائدا من الولايات المتحدة الأمريكية فى زيارة قصيرة لمصر، فإذا به يحيينى ولم تكن هذه عادته، وقد ذهلت لأنه كان يعرف الكثير عنى، بما فى ذلك إقامتى بالولايات المتحدة، وخلافاتى مع قسم علم النفس بجامعة القاهرة، وبعض التغيرات الفلسفية واتجاهاتى فى البحث العلمى والعلاج النفسى. ظل الحديث قائما بيننا زهاء نصف الساعة سألنى عن أحوالى وأين أنا الآن، وإذا ما كنت أزور قسم علم النفس بجامعة القاهرة، ثم تطرق الحديث عن "أيزنك" وفضيحة "سيريل بيرت" العلمية. لم أندesh، فقد كان متابعا للتطور العلمى، حتى مع من كان يختلف معهم إيديولوجيا، لقد أثرانى لقائى القصير به ذاك.

من جهة أخرى لم يكن خافيا على القاص والدانى أن زيور كان محلا نفسيا وصاحب نظرية ولم يغير من انتمائيه لها، وربما كان حماسه هو الذى أغرى الآخرين بأن يظنوا أنه على خلاف مع

التيارات الأخرى كالقياس النفسى وعلم النفس السلوكى والتوجهات التجريبية الأخرى.

وإغراء الاختلاف يدفع إلى إغراء آخر بأن يظن البعض أنه كان متعصبا لنظريته و مصارعا ضد أى اتجاه آخر. وكان هذا خطأ فى فهم الرجل وقع فيه الكثيرون. نظرة واحدة لقسم علم النفس بجامعة عين شمس فى تلك الفترة من حياتنا تدحض هذا بوضوح، فلم يكن هناك أكثر إيمانا بالتنوع والتفتح لكل التيارات مثل "زيور" ولم يكن أكثر منه وعيا بأخطاء التعصب العلمى على نمو العلم وعلى تنمية العلماء.

فى يقينى أنه كان يدرك جيدا أن صراع الأفيال يحطم الزهور، ففضل أن تتبنى عظمته لا على تحطيم الزهور، بل على غرسها وإنعاشها، إنه فضل أن يتحقق فيه قول هاملت "الرجل العظيم حقا هو الذى يحارب لسبب عظيم".

لهذا لم تكن صدفة أن يحدث التطور سريعا بشعبة علم النفس، فقد انعكست رؤيا الراحل الجليل فيما يبدو على نمو هذا التخصص فضم كل التيارات الأخرى ومن مثلوها من الأساتذة الذين عينوا بالقسم أو بانتداب الأساتذة الآخرين. ومن ثم كان حظنا كبيرا بدراسة المقاييس النفسية واختبارات الذكاء وقياس الشخصية واختبارات الإسقاط وعلم نفس الأطفال ونظريات التعلم وعلم النفس الصناعى جنبا إلى جنب مع مختلف تيارات التحليل النفسى، وفى هذه الفترة كان حظنا أن نتلمذ على أيدى أساتذة آخرين لم يكونوا من بين المعتقنين لنظرية التحليل النفسى فدرسنا مع السيد خيرى و لويس كامل وعبد المنعم المليجى

ما يهمننا من هذه النظرية أن "باربر" صنف القادة والرؤساء بحسب أربعة أنماط تبرز من التقاء أطراف متصلين كمييين continuum رئيسيين هما:

المتصل الأول : النشاط (أو الفاعلية) - الخمول (passivity-activity) ويتعلق بمدى بذل الطاقة والنشاط الذى يستثمره الفرد لإنجاح عمله. فمثلا لو اتخذنا من النماذج الرئيسية التى وضعها لنا باربر نجد أن ليندون جونسون Lyndon Johnson كان نموذجا للبعد النشط وفق "باربر"، فجدوله مشغول دائما ولم يكن يرجع لمنزله إلا فى الهزيع الأخير من الليل وهو فى هذا يحتل الدرجة العليا من بين الرؤساء الأمريكان مقارنة مثلا بكلفين كوليدج Calvin Coolidge الذى وضعه "باربر" فى البعد الخامل، فقد عرف عنه أنه كان ينام ١١ ساعة ليلا بالإضافة لفترة راحة فى الظهيرة. ويقع بقية الرؤساء على مواقع متوسطة من هذا البعد. وإذا أخذنا نماذج أكثر حداثة فتحن نجد أن كلينتون مثلا يقع فى أعلى الدرجة بينما "ريجان" مثلا كان على العكس يكثر من الراحة لدرجة أنه كان ينعس خلال الاجتماعات، أما جورج بوش الابن فيحتل درجة متوسطة ولكنها أقرب للجانب الخامل منها إلى الجانب النشط. ومن هذا المنطلق ربما نجد أن الرئيس المصرى جمال عبد الناصر احتل أيضا درجة عليا على مقياس النشاط والفاعلية.

المتصل الكمي الثانى : الفاعلية الإيجابية - السلبية (active-negative) ويختص بفاعلية أداء القائد لعمله، وما يمنحه لهذا العمل من حب

ومن خارج القسم درسنا مع يوسف مراد ومصطفى سويف و كامل النحاس وأحمد فائق وغيرهم. وقد بقى القسم على هذا التقليد الجميل حتى الآن بفضل من تتلمذوا على زيور من علماء التحليل النفسى وعلم النفس بمختلف تياراته الأكاديمية من أمثال فرج أحمد فرج ومحمود أبو النيل وفرج طه و نيفين زيور وغيرهم ممن لم نتح لى الظروف بالتعرف إليهم عن قرب. لقد كان إيمان زيور الأكيد بالتنوع والتعدد ما جعله يوجه الصراع إلى مجالات تنموية لا تحطم الزهور بل تساعد على نموها وغرسها.

### ٣- الكاريزما أو موهبة الحضور مع الفاعلية:

ماذا عن المسار الثالث مسار الشخصية، اسمحوا لى هنا أن أستعير بعض مصطلحات إحدى نظريات علم النفس السياسى. فلعمالء النفس السياسى الأمريكى - جيمس باربر James D. Barber " نظرية فى الشخصية القيادية استطاع من خلالها أن يحدد الخصائص والأساليب التى تميز القائد الناجح فى إدارته للأمور بفاعلية. واستطاع من خلالها أن يتنبأ بالنجاح القيادى فى مختلف المواقف الاجتماعية بما فى ذلك إدارة المؤسسات والأقسام العلمية ومراكز البحوث، ثم بعد ذلك طور هذه النظرية كوسيلة للتنبؤ بنجاح الأداء لدى رؤساء الجمهورية الأمريكيين.

(\*) ضمن "باربر" تحليلاته للرؤساء الأمريكيين فى مجلد ضخيم بعنوان :

James D. Bather (1980) The Presidential Character. Eaglewood Cliffs, N.J.: Prentice-Hall.



واهتمام وزخم وجدانى. بعبارة أخرى يجيب لنا هذا المتصل عن أسئلة عن الشخصى القيادى من هذا النوع: هل هو مثلاً يودى عمله بحماس وحب وإيجابية؟ هل يستمتع بأداء الدور أم أنه يوحى لنا بالتقاعس وعدم الرضا؟ هل يقوده الآخرون ويوجهونه، أم أنه هو الذى يقود ويوجه ويحرك الناس من حوله لتحقيق أهدافه؟

ومن هذين المتصلين يتكون أربعة أبعاد:

- النشط- الإيجابى ACTIVE-POSITIVE

- النشط- السلبى ACTIVE-NEGATIVE

- الخامل- الإيجابى PASSIVE-POSITIVE

- الخامل- السلبى PASSIVE NEGATIVE

• لو أننا اهتمدنا بمفاهيم هذه النظرية لإلقاء الضوء على شخصية الراحل الجليل لكان من السهل على أن أضعه فى فئة النشط-الفعال-الإيجابى. فقد كان أشبه بالمبايسترو الذى يوجه العازفين من حوله ويكيف ما يصدر عنهم من أنغام لمثله العليا. ولهذا أراه يحتل وفق مفاهيم باربر موقعا مرتفعا على بعدى النشاط (الفاعلية)

الإيجابية معا positive-active. وبعبارة وصفية أكثر يسرا كان نشطا متحمسا محبا لعمله بدرجة عالية من تقدير الذات والتأثير فى الآخرين. فى هذا النمط يوجد من نسميهم بالقادة الكاريزميين، أى ممن يتسمون بالحضور والكاريزما بما لهم من قدرات على التأثير فى الآخرين، وهو فضلا عن ذلك اتسم بالإيجابية والفاعلية، أى أن قدراته التأثيرية وجهت لأهداف إيجابية تبنى ولا تهدم، وتحمى ولا تهدد. إن كل سمة فيه جعلت منه شخصية متميزة بما فى ذلك حضوره، وعلمه، ودعمه لتلامذته وزملائه. وأثق أن من كانوا أكثر قربا منه وبقوا معه فترات أطول منى هم أقدر من يعطينا الكثير من الأمثلة والمواقف التى تشير بالفعل إلى اتصافه بهذا البعد من الشخصية.

تناغمت فى شخصيته قوى النشاط ودوافع الفاعلية والحماس والتقت جميعا فى وحدة وبناء شخصى نادر زرعت فيه بذور البقاء ولحن الخلود بما حقق من اعتراف خارجى.

رحم الله الراحل الجليل



